

فلسفة الجدل عند باشلار

أ. كريم كربوش

طالب دكتوراه

المدرسة العليا للأساتذة/ بوزريعة

ملخص:

يعتبر الجدل الباشلاري أحد أبرز السمات المميزة للإبستمولوجيا المعاصرة، المتصلة بإعادة بناء تاريخ العلوم، إنه جدل يختلف تماما عن الجدل الفلسفي الكلاسيكي، من حيث اعتباره يشكل عائقا إبستمولوجيا، فيما يتعلق بلغتي الخطاب والاختبار الإبستمولوجيين المعاصرين. إن تجديد المعارف والنظريات يتلخص أساسا في إعادة تشكيل المقولات والمفاهيم الإبستمولوجية التي تهدف إلى تأسيس الفلسفة المفتوحة. أما فيما اتصل بالفكر العلمي الباشلاري فإنه فكر يتمحور حور منطق التكامل، ويعتبر مغايرا تماما للمنطق الجدلي الأفلاطوني، كما يختلف عن المنطق الجدلي الهيجلي وكذا المنطق الماركسي. وإجمالا فإن الجدل الفلسفي في تصور باشلار إنما يلخص رؤية جديدة عرض لها في كتابه "فلسفة اللا".

Abstract:

The Bachelard's dialectic is one of the epistemological issues which are susceptible in the reconstruction of the history of science. This dialectic differs from the classical philosophy one from the point of view that it constitutes an epistemological obstacle concerning the language and the practice of contemporary epistemology.

The dialectic of knowledge and theories is based on the reconstruction of notions of epistemological terms which target adopting an open philosophy. However, the Bachelardian scientific spirit is mainly structuralist and relativist based on the logic of complementarity that is fundamentally different from the logic of Platonic dialectic. In addition it's also different from the modern dialectic which was adopted by the Hegelian philosophy and the one of Marx.

In brief, the Bachelardian dialectic philosophy summarizes its vision in a No-Philosophy.

الكلمات المفتاحية: الجدل، التجديد، الاستيمولوجيا، النظرية، المعرفة، الجدل الكلاسيكي، الدل المعاصر، الجدل الأفلاطوني، الجدل الهيجلي، الجدل الماركسي، فلسفة اللا، الخطاب والممارسة الاستيمولوجية.

المقدمة:

إن قراءة تحليلية أو نقدية أو تاريخية لتراكمات المعرفة البشرية عبر عصور وأزمنة متتابعة تضعنا أمام محاكمة عقلية بناءً لمدى قدرة الفكر العلمي على تبديد مظاهر القصور المعرفية ونبذ التطرف الثقافي السلبي الذي تحتكم إليه ثقافة العوام من الناس وأساليب التعامل مع مشكلات الحياة والعالم، فقد كانت مساعي العلماء دوماً يراد من مقاصدها إعادة صياغة الأساليب والطرائق المنهجية ووضع القواعد والمعايير القبلية والبعدية، في إطار من المقاربات الجدلية، بغرض تفكيك البنى والأنساق المعرفية، ناظرين في أسسها ومقولاتها ومدى إدراكها لقيم المنطلقات والنهايات التي ترسم حدود الممارسات الفاعلة في الطرح النظري والاختبارات الإجرائية العملية، وإنا لا نكاد نعثر على نظريات علمية حية وديناميكية إلا في إطار اندماجها في معترك الصراعات الجدلية، وبالمثل نعتقد أن النزعة الإحيائية الجدلية تكون عرضة للزلل والشلل إن هي لم تجاري التحولات الثورية البادية في حياة العلم وهو يشهد وثبات وثورات تجديدية في روح الثورات العلمية، وإنا لا نشك بتاتا في تمثل عظمة الثورات العلمية في تشعب مساراتها الجدلية ونحن نقرأ بإذعان لفلسفات المفكرين والباحثين، الذين أبانوا عن مواطن العقبات والعوائق المعرفية التي عطلت حركية الفكر العلمي. ويعد غاستون باشلار رائداً من أشهر رواد فلسفة العلم المعاصر الذي عرض لمشكلات الفكر والعلم التاريخ، وهي تشكل ملامح المعادلة الجدلية الثلاثية في الخطاب الإستيمولوجي الباشلاري لأن تلك معادلة متعدية توحى بأن جدل المعرفة الإستيمولوجية في الطرح الباشلاري يرتكز على منطق البنية التكاملية الشاملة لمقومات وأسس المعرفة الإنسانية، في الفلسفة العلمية المعاصرة، ويعتبر باشلار الجدل (LE DIALECTIQUE) إحدى أهم المقولات الإستيمولوجية

التي تؤسس لمنطق الانفتاح في الفكر العلمي الجديد، لأن العلم لا يعرف تطوراً وتحرراً من دون حركية الفكر الجدلية التي تهدف إلى محاورة التناقضات والقطيعات التي تمنحنت عنها مختلف الثورات العلمية.

1- الجدل مقولة ثورية:

أ- مفهوم الجدل في الفلسفات الكلاسيكية: القصد من جدلية المعرفة " هو الحركة الاستقرائية التي تعيد تنظيم المعرفة بتوسيع أسسها"⁽¹⁾. لأن من دون النقد لا تتشكل بنية العقل العلمي، فيظل العقل قبعلمياً مستغرقاً في السكونية والتقليد والمحاكاة لمنطوق الأنساق والمذاهب التقليدية، وإذا كان الفكر قبل العلمي يتشبه بالجدليات القبلية كمثّل الجدليات الفلسفية القديمة التي أرخت لسجال مذهبي بين "أفلاطون" والسفسطائيون، التي أضفى عليها "أفلاطون" الطرح العقلاني المثالي، فإن الفكر العلمي الجديد لا يرتد إلى الجدليات القبلية ولكن يعتد بما هو بعدي، بنائي متحرر متحدد باستمرار. ولعل هذا الطرح يقترب نسبياً مع منطوق الفهم الهيجلي برغم مجاوزة باشلار له. فقد عرف "هيجل" الجدل بقوله: "أما الجدل فهو يعني السجال المستمر الذي تتجاوز بواسطته التحديد وأحادية الجانب لصفات الفهم، بحيث توضع في وضعها الصحيح أي يتضح ما فيها من سلب... وإذا ما فهم المبدأ الجدلي على هذا النحو فسوف يكون روح التقدم العلمي وحياته، كما سيكون الدينامكية التي تضفي وحدها الارتباط الحايث، والضرورة الكامنة في جسم العلم"⁽²⁾.

ب- التجديد الديالكتيكي بين هيجل وماركس: والجدل الهيجلي على هذا النحو ليس متروكاً للفكر وحسب، وإنما هو وقود حركية التاريخ وبحسبه تنجلي حقيقة الصيرورة عند "هيجل" إن هذا الطرح الجدلي الذي استخلصه هيجل من خلال معادلة (العقلاني والواقعي)، لا تختلف في الحقيقة مع التصور الماركسي للجدل إلا في قوالبه المادية " فالديالكتيك الماركسي حينما يطبق الجدل وقوانينه على المادة أو الطبيعة، فإنه يفرض أن الضد يصارع الضد، ولكن مصيرهما إلى الوحدة التركيبية وليس التكاملية

وبينما الديالكتيك الماركسي ديالكتيك (مغلق) فإن فلسفة النفي أو اللا عند باشلار وفلسفة مفتوحة⁽³⁾. وهكذا فإن الحركة الديالكتيكية في التاريخ العلمي والحضاري غير منقطعة الصلة عن النزعة التطورية (Evolutionalisme) "على أن النزعة التطورية لم تكتسب طابعها العلمي . الفلسفي . العقائدي إلا مع المادية الجدلية التي أنشأت نظرية كاملة عن الكون والإنسان... لكن ما يميز الجدل الكلاسيكي عن الجدليات الابدستيمولوجية المعاصرة يتمثل في أن الجدل الكلاسيكي متشعب وغير ديناميكي لا يقتصر على النظر في النظريات والمناهج والمقولات العلمية، ولكنه انحرف عن العلمية إلى اللاعلمية، لأنه أبدى استغراق في جعل جدل النظريات في ذاتي، منغلق حيادي يمثل الجدليات المادية والتاريخية، " فالمادية الجدلية هي النظرية العامة للإتجاه الماركسي اللينيني، وأطلقت عليها هذه التسمية اعتباراً من أن أسلوب تقدير الظواهر الطبيعية ، ونمط البحث والمعرفة في مستويات الترجمة والإدراك، مستخلص من النظرية المادية"⁽⁴⁾ فالديالكتيك كما يقول لينين "هو العلم الأوسع والأعمق للتطور. هو علم القوانين العامة للحركة سواء في العالم الخارجي أو في الفكر البشري"⁽⁵⁾. "ولأن كان الجدل الهيجلي ثلاثي الأبعاد (القضية . القضية النقيضة . القضية التآلفية) فكذا الجدل الباشلاري يتأسس بالاعتماد على المحطات التاريخية الكبرى:

" - المرحلة الأولى تمثل الحالة الماقبل علمية وتشمل في آن واحد على الأزمنة الكلاسيكية القديمة وعصر النهضة والجهود المستجدة في السادس عشر والسابع عشر وحتى في القرن الثامن عشر.

- وتمثل المرحلة الثانية الحالة العلمية، التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر، وشملت القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

- وفي المقام الثالث سنحدد بدقة تامة عصر العقل العلمي الجديد ابتداء من العام 1905م حين بدأت نظرية اينشتين⁽⁶⁾.

إن هذه الحلقات التاريخية هي وحدها الكفيلة بمنحنا مدلولاً ومعنى للجدل الفكري الكامن في أحداث الجدل التاريخي، وما يبرر منطق القسمة والتصنيف، هو الحركية الإنمائية لتطور العلوم. "ففي الجانب الهندسي، ومن طريق الهندسة غير الإقليدية ظهرت الجدليات العلمية الأولى. فإذا لم تكن الحركة التي يتوجب عليها نشر الجدليات وتوسيع التطبيقات على فلسفة الرفض حركة سريعة جداً ولا منتظمة جداً، وإذا لم تكن مقبولة من طرف الفلاسفة كلهم، فذلك لأن الكثيرين من الفلاسفة فقدوا الاتصال بالثقافة العلمية المعاصرة" (7).

2- جدل البنية والتكامل في ابستيمولوجيا باشلار:

أ- مقارنة الجدل العلمي والجدل الفلسفي: إن فلسفة النفي عند باشلار لا ترتد إلى جدليات سابقة أو تقليدية، ولكنها جدلية بنائية متجددة إحيائية مع دوام الانفتاح، تميز بين مقومات الجدل الفلسفي وبين ضرورات الجدل العلمي، دون التعرض لقطيعات السلب في البنى التركيبية لنظريات وأنساق المعرفة. وعليه فإن الفهم العلمي لمنطق ووظيفية الجدل، يختلف عن الجدل الفلسفي، اعتباراً من أن الجدل الفلسفي يتموضع حول مصادرات النسق، أو المذهب، ليجعل العقل خاضعاً له بخلاف الجدل العلمي الذي يرفض الانغلاق، ويعتبر هذا الضرب من الجدالات الفلسفية عائقاً يقتضي القطيعة. يقول "باشلار": "فالجدل العلمي يتميز عن الجدل الفلسفي، لأن الجدل العلمي ليس بناءً قلياً، ولأنه يترجم المسيرة التي ينهاجها العقل في معرفة الطبيعة. فالجدل الفلسفي، جدل هيغل مثلاً ينطلق تعارضياً من الأطروحة ونقيضها، ومن صهرها في مفهوم أرقى للتوليف. وفي الفيزياء لا تكون المفاهيم الموحدة متناقضة، مثلما هي عليه لدى هيغل، بل تكون بالحري مفاهيم متكاملة" (8).

هكذا تتحدد معالم الممارسة الإبستيمولوجية في الوظيفة الديناميكية لتطور الفكر العلمي في نظر "باشلار"، واعتباراً من أن العقل النقدي هو الذي بوسعه صناعة وصياغة البناء العلمي بمفاهيمه ومصادراته ونظرياته. فإن فلسفة الرفض عند "باشلار" لا تنزع

إلى إعادة ضبط المفاهيم، ولكن ترغب في تفكيكها و تعديلها. "إن الجدلية بالنسبة إلى من يرفض الخلط بصورة مغامرة بين الألف معنى ومعنى لمصطلح أصبح اليوم صالحا لكل شيء، بحسب باشلار، وعي بالتكامل والتنافس بين مفاهيم لا يكون التناقض المنطقي محركها. هذه الجدلية لا تعمل إلا على قليل من التناقضات، إلى حد أنها على العكس من ذلك تجعل بعض آثارها التراجعية وهمية التناقضات ليس في مستوى تجاوزها"⁽⁹⁾. إذ المفاهيم في تفرداها أو في بنيتها ليست على درجة مماثلة في الوضوح والمعقولية. يقول "باشلار": "ربما يتوجب الحذر دائما من مفهوم لم تتمكن بعد من جعله مفهوما جدليا، وأن ما يمنع جدليته هو العبء المضاف إلى مضمونه"⁽¹⁰⁾، إذا أدركنا القصد في تمعن حقيقة الجدل مثلا بين التصور الفلسفي وبين التصور العلمي الجديد، نكون قد قطعنا الشك باليقين من أن الجدل التقليدي لا يفيدنا في إعادة بناء تاريخ للعلوم، وذلك ما يبرر ضرورة القطيعة معه. إنه يشكل عقبة حقيقية في وجه الفكر العلمي الجديد، لأنه يحجب عنه النقاش البناء الذي يفضي إلى هدم وإعادة بناء العلم، وإذ ذاك فإن "هذه الحاجة إلى مفاهيم أساسية مجدلة، هذا الحرص على إبقاء النتائج المتحققة موضع نقاش وسجال، هذا العمل السجالي العقلي المتواصل لا يجوز أن تخدع النشاط البناء لفلسفة الرفض. ففلسفة الرفض (النفي) ليست إرادة سلبية، فهي لا تنطلق من تناقض يعارض دون أدلة، ويشير جدالات فارغة وغامضة"⁽¹¹⁾. فالجدل يشعرنا بمحدودية أفكارنا وبضرورة تعبئة الفراغ الذي ينزع إلى بلوغ الاكتمال العلمي فالتاريخ العلمي حافل بالأخطاء، وذلك مكن الموضوعية الصادقة فالفكر ليس أسير عصر من العصور أو مذهب من المذاهب، "وليس فقط أفكارنا محدودة تماما، إنما أيضا معرفتنا محدودة أكثر من أفكارنا، لا نشك مطلقا في أن معرفتنا البشرية لا تستطيع أن تمتد بعيدا، وإذا أراد البشر الاهتمام بإخلاص بإيجاد وسائل إكمال الحقيقة بحرية ذهنية كاملة، وبكل التطبيق والصفة التي يستخدمها لزخرفة أو مساندة الخطأ والدفاع عن المذهب الذي يعلنونه... لن تستطيع معرفتنا أبدا الإمام بكل ما نرغب معرفته مما يتصل بما لدينا من أفكار"⁽¹²⁾.

ب- مقومات الجدل الباشلاري: ما من شك أن الجدل الباشلاري (dialectique bachelardienne) لا ينفصل عن مرجعيته (تاريخ العلوم)، وإذ يتحتم على العقل عقد الحوار السجالي بين مختلف المعارف العلمية فإن تطور العلم مرهون بتطور الفكر الناظر في العلم لأن الأبحاث الإبيستيمولوجية (les recherches epistemologiques) في نظر باشلار أضحت ملازمة للدراسات السيكلوجية الناظرة في شروط المعرفة العلمية. لقد "أصبحت الإبيستيمولوجية الجدلية تعرض في علاقاتها مع علم النفس أكثر مما تعرض في علاقتها مع المنطق، وقد كان الفكر العلمي الجديد قد أخذ على عاتقه بيان أن الفكر له بنية متنوعة، منذ اللحظة التي كان فيها للمعرفة تاريخ"⁽¹³⁾. وعليه فإن الجدل هو الذي يشكل محاور الفهم والمعقولة إزاء بنية العلم (structure de la science) متموضعا ومتطابقا مع مقومات بنية الفكر، (structure de l'esprit) الذي يتدرج من قطعة إلى أخرى ومن فهم إلى فهم متجدد، لأننا عندما ندرك صواب الفهم يتأكد لدينا يقين الاعتقاد بمتون أخطاء العلم. فالقطيعة والجدل حدان متلازمان في الفعل الإبيستيمولوجي لدى "باشلار".

"إذن يحتاج العلم بوصفه مجموعة براهين واختبارات مجموعة قواعد وقوانين مجموعة بنيات ووقائع يحتاج إلى فلسفة مزدوجة القطب: إنه يحتاج بشكل أدق إلى إنماء جدلي، لأن كل مفهوم يضاء بطريقة تكاملية من زاويتين فلسفيتين مختلفتين"⁽¹⁴⁾.

وهكذا فإن "مفهوم الجدلية عند باشلار يرجع التأكيد بشكل مختصر وجاف إلى أن العقل هو العلم ذاته. أن نميز مثلما تم فعله وصولا إليه، بين العقل والعلم هو أن نسلم بأن العقل، هو قوة المبادئ مستقلة عن تطبيقاتها، وفي المقابل أن نماهي بين العلم والعقل، هو أن ننتظر من التطبيق رسما للمبادئ"⁽¹⁵⁾.

إن تآلف العقل بالعلم هو ما يحتويه منطوق الفكر العلمي. والراجح في تصور "باشلار" ليس شحن العقل بالمبادئ والتمثلات الدوغمائية، إنما إخضاع المبادئ العلمية والمنطقية لسلطة الفكر المتحرر، إنه الفكر الجدلي، الصراع المتجدد باستمرار،

"إن الجديد لا يأتي من استمرار القديم، أو تكراره، بل عبر الانشقاق والخروج عليه، إذ أن الجديد يظهر ك لحظة فريدة على شكل وثبة، أو قفزة أو طفرة" (16).

واعتبارا من هذا الفهم الديالكتيكي لتطور العلم والفكر، يتجاوز "باشلار" النزعة الحدسية التي تقر بمبدأ الديمومة، تماما مثلما تجاوز النزعة الاستمرارية عند "أيميل مايرسون" "فلا شيء يسمح لنا بتأكيد الديمومة، إن كل شيء فينا يناقض معناها ويهدم هيكلها، ومن جهة أخرى فإن إحساسنا أكثر اطلاعا في هذا الباب من عقلنا، فإحساسنا بالماضي هو إحساس بالنفي والهدم، إن الاعتبار الذي يوليه عقلنا لديمومة موهومة لا وجود لها، والتي لا يكون للعقل فيها وجود، اعتبار لا قيمة له" (17). والقصد من ذلك أن لغة الأحاسيس ونوازع الحياة النفسية ليس لها محل في قاموس الإبيستيمولوجيا الباشلارية إذ لا العقل ولا الشعور بوسعهما مجازاة الأفعال الديمومية تبعا للفهم السيكلوجي الساذج لأنه عائق دون التكيف والتطور، بخلاف تصور "برغسون"، الذي أعلن خلاله " أن التكيف يساهم في حركة التطور، رغم أنه لا يفسر لنا الملامح الكبرى لهذه الحركة بالذات، فالمسلك المؤدي إلى المدينة، بالضرورة يرتفع صعودا ويهبط نزولا" (18)، ومبرر ذلك كذلك، تنافي المطلب والمقصد مع ما تقرره العقلانية التطبيقية التي تنزع إلى اقتفاء منطق الموضوعية العلمية واستبعاد النزعة الذاتية. لذا "لم يحاول "برغسون" جعل الجدلية ترد بأفعالها على صعيد الوجود، ولا حتى على صعيد المعرفة الحدسية و العميقة، فظن أن الجدلية لم تكن تتجاوز محاورة النفس والواقع، وأن التجربة التي تنطلق من الأشياء إلى الأنا كانت لعبة صور تحتفظ بتناسق ملموس" (19). هذا ولم يقف الرفض الباشلاري عند حقل الحدسانية والمثالية وحسب، ليشمل عديد الفلسفات العملية، بينها البراغماتية.

"إن البراغماتي ينادي طوعيا بأولوية الفعل، لكنه في الواقع يلحق الفعل بمقولة النافع، أو أنه - وهذا يؤدي إلى الشيء نفسه - يخفض الشخص إلى الحيوية البسيطة، وفي هذا المنظور لا يمكننا إجراء أي تفريق أساسي بين الإنسان والحيوان" (20). على

هذا النحو تتحدد ملامح المخططات الكبرى للمشروع الإبيستيمولوجي عند "باشلار" إذ المعرفة بناء متحدد، متدرج مقولاته الأولى: النقد والرفض والقطيعة. ومقولاته الختامية: التكامل والانفتاح، و"أول درس نستفيده في نظر باشلار في الفيزياء المعاصرة هو أن الجدل في العلم يعني التكامل"⁽²¹⁾. ولعل هذا الدرس يمثل رسالة صريحة من "باشلار" متوجها بها إلى خصوم العقلانية التطبيقية ونخص بهم أنصار العقلانية المثالية، بينهم "هيغل" و "فخته" ممن حصروا المنطق الديالكتيكي في قوالب تقليدية ضيقة حداها الرئيسيان: الإثبات والنفي، في حدود ما تنص عليه قوانين المنطق الصوري أما "فخته" فقد "بنى أولا الجدل المتعالي بتطبيق قوانين المنطق العام، وهو يماثل في استخدامه الأورغانون من حيث هو جدلي دائما: وقد بنى فخته نظامه الجدلي انطلاقا من مبدأي الهوية والنفي اللذان يستحيل التخلي عنهما"⁽²²⁾. بين إذن أن الجدل الباشلاري الممارس في حقول الدراسات العلمية تصحيحي تقويمي بالدرجة الأولى، يسعى أولا إلى إحلاله نطاق الأبحاث الفلسفية، دون ربطه بمواضع القطيعة وأضرب السلب الماثلة في المدارس الفلسفية، كالمثالية والواقعية الساذجة البراغماتية والروحانية. إن الفكر العلمي الجديد يحتويه فكر شمولي، متكامل ومنفتح، وإذ ذاك فالفكر الجدلي المعاصر متنوع بحسب منطوق التكامل "التكامل بين الاتجاه العقلاني والاتجاه التجريبي، التكامل بين القبلي والبعدي، التكامل بين المحسوس والمجرد، التكامل بين العالم الرياضي والعالم التجريبي"⁽²³⁾. ففلسفة التكامل التي أقرها "باشلار" تركز على حدين أساسيين هما: القبلي، وهو حد أولي، ثابت، ضروري لا يعرض على معايير النقد والشك وبعدي تجريبي بنائي متغير. وبموجب التعاقب القائم بين القبلي والبعدي، يتأسس التآلف بين العقلانية والتجريبية، إذ التجريبية بحاجة إلى الاكتناء والعقلانية بحاجة إلى التطبيق. إن تجريبية بدون قوانين واضحة، بدون قوانين متناسقة. بدون قوانين استنتاجية لا يمكن افتكارها ولا تدريسها، وإن عقلانية دون أدلة حسية بدون انطباق مع الواقع المباشر لا يمكن أن تقنعا إقناعا مباشرا، فقيمة أي قانون تجريبي يبرهن عليها يجعلها قاعدة

عقلية محكمة. وهكذا فإن تعديل المعارف والنظريات العلمية يمثل أحد السمات البارزة في الإبيستيمولوجية الباشلارية التي تهدف إلى مجاوزة الفكر لذاته باستمرار كلما اقتضت الضرورات العلمية، إعادة بناء العلم وكذا تاريخ العلوم. ولو أن تاريخ العلم يعني بتاريخ الحقائق وحسب، ما كان العلم بحاجة لإعادة النظر أو مراجعة المنظومات والأنساق المعرفية، إذ الأصل أن تاريخ العلم هو تاريخ أخطائه "وإذا كانت الأخطاء ذات أهمية كبرى في تطور العلم فذلك لا لأنها ليست الحقيقة، بل لأنها القوة المحركة للحقيقة. ومن هنا كان من الضروري أن يهتم تاريخ العلم بالتعايش (الالتقاء والاتصال) الديالكتيكي للصواب والخطأ" (24). بحسب هذا المنطق الباشلاري يتحقق فعل التطور والنمو كخلاصة لمعادلة التعاقب والصبويرة بين الأخطاء والحقائق (بين العلم واللاعلم) "إن تاريخ العلم ليس تاريخاً للحقيقة، بل هو تاريخ ما ليس العلم إياه، وما لا يريد العلم أن يكونه، وما يعارضه العلم. تاريخ العلم هو تاريخ اللاعلم" (25). الذي ما لا تستهويه الآراء والنظريات العلمية الستاتيكية ولكنه تاريخ ديناميكي، مبني، يستبطن كنه الفهم والتكامل في مختلف مسائل العلم قديمها وجديدها. "إن قوام البنية ليس بالتراكم وليس لكثرة المعارف الثابتة تلك الأهمية الوظيفية المفترضة، فإن نحن قبلنا حقاً أن الفكر العلمي في جوهره يعني إنشاء "الموضوعية"، وجب أن نستخلص أن مهمته الحقيقية هي التصحيحات وتوسيعات الشمول. وعلى هذا النحو نستطيع كتابة تاريخ الفكر" (26). إذ القصد من التعميم في الممارسة الإبيستيمولوجية هو إدراك التكامل. وعموماً "فالإبيستيمولوجيا التكاملية عند باشلار تقوم على ديالكتيك علمي، أو هي إبيستيمولوجيا مؤسسة على العلم الحديث، وهي تسلم بأن كل حقيقة هي حقيقة مجملة وأن كل فكرة هي دوماً في حالة صبويرة وأن قضية علمية مهما كانت تقبل المراجعة (revisibilite)" (27).

واضح إذن أن الفلسفة العلمية المعاصرة، تؤمن بضرورة امتلاك العقل لخاصية التمرد على القيم والمعارف النمطية التي يحتويها الانغلاق والتأخر، "فصحة المذهب

ليست مستمدة من شكل الواقع، ولكن على عكس ذلك، فالحكم على الحقيقة يجب أن يستعرض بدلالة تنظيم فكري⁽²⁸⁾. وعليه "تكون فلسفة العلوم حتى لو حصرناها في فحص علم عام فلسفة مبعثرة بالضرورة، ولكنها فلسفة متناسقة وتستمد تماسكها من جدلها وتقدمها، فكل تقدم لفلسفة العلوم يتم في اتجاه فلسفة متطورة ويقوم في صدد كل المفاهيم بإزالة الواقعية الأولية"⁽²⁹⁾، ولنا ما يبرر موضوعية هذا الطرح في سجل القديم بالجديد، في علوم وفلسفات التاريخ في عصوره الثلاثة المتعاقبة. فالميكانيكا النيوتونية أعقبته الميكانيكا اللانويوتونية، والعقلانية الديكارتية أعقبته الإبيستيمولوجيا اللاديكارتية، والنظرية الجسيمية في الضوء تجادلت مع النظرية الموجية، وهكذا. إن التجديد المنهجي لمصادر الفكر قبل العلمي، ضرورة لا بد منها، لتخطي العقبة المفهومية المتضمنة في قوالب الفكر وأنساق المعرفة، واعتبارا من ذلك ينزع الفكر العلمي إلى ضبط آليات المعرفة وتصنيف مراتبها وحدودها " فلا يمكننا أبدا على مستوى بعض المصادر أن نفعل أكثر من أحد الأمرين التاليين: إما تبيان جدلية فعلية وإما تبيان جدلية محتملة"⁽³⁰⁾.

ج- تجديد معادلة العلم واللاعلم: وإزاء هذا الطرح، لن نبرح فلسفة "اللا"،

التي عرض لنا فيها "باشلار" أدق المقولات لتبرير ضرورة الجدل الاحتوائي، معبرا عن فلسفة الصراع وتسلط الجديد على القديم، إذ يقول: "هل ثمة مثال أفضل من هذا الجدل الاحتوائي من توسيع مفهوم التوازي حينما نتقل من الهندسة الإقليدية إلى الهندسة اللاإقليدية، فنحن هنا نمضي من عملية فهمية مغلقة، خطية إلى عملية فهمية حرة شجرانية (Arborescente)"⁽³¹⁾، بين إذن أن جدل الاحتواء في الفهم الباشلاري يرسخ قاعدة اندراج القديم في الجديد، فالقديم ما عاد نموذجا ولا مطلقا. إنه مغلق ونسي، بالقياس إلى انفتاح الجديد في مستجدات الفكر العلمي الجديد وإذ ذاك فإن "باشلار" "عندما يشدد على الطابع اللاإستمراري للفكر العلمي الجديد بالعلاقة مع

الفكر العلمي القديم، بما تعنيه هذه اللإستمروارية من لا تراكمية أساسية للمعرفة، فإنه يعني في ذات الوقت بتفكير جدليته كاحتواء وتوسيع للقديم داخل الجديد" (32).

إن إشاعة الديالكتيك العلمي في الممارسة الإبتيمولوجية، يهدف بالأساس إلى صناعة بنية الفكر الجديد، وإعادة بعث العناصر الثابتة في الفكر العلمي القديم، كمتغيرات أساسية لفهم الظواهر المتصلة بالمسائل العلمية الراهنة. يقول "باشلار": "تجديل التفكير (تطبيق الديالكتيك عليه) معناه الرفع من قدرته على إنشاء الظواهر الكاملة إنشاء علميا وعلى إحياء جميع المتغيرات المهملة التي كان العلم والفكر الساذج قد أهملها في الدراسة الأولى" (33).

وإجمالا فإن مفهوم الجدل في الإبتيمولوجية الباشلارية تحتويه مقولتنا: الاختبار والنظر العقلي لكن ليس بالمعنى التقليدي الذي اصطنعته المذاهب الفلسفية، ابتداء من عصر أفلاطون.

إذ لا يفهم الجدل في تصاعده أو تنازله، ولا في حدة التصادمات بين المواقف والآراء المتناقضة، ولكن فبما يؤسس لإبراز شكل العلاقة بين الجدل والتركيب في الفكر العلمي الجديد. وهذا ما أشار إليه باشلار في مؤلفه الشهير: "الفكر العلمي الجديد" (Le nouvel esprit scientifique) في قوله: "وقد أشرنا في جميع المسائل المتنازعة إلى الشروط التركيبية، حينما بدا لنا من الجائز إقامة توفيق تجريبي أو توفيق نظري، ولكن هذا التوفيق قد ظهر لنا دائما من حيث أنه توفيق... لا بيدد الثنائية المنقوشة في تاريخ العلم في النمو التربوي في الفكر ذاته" (34). ولن نبرح مسألة تاريخية الجدل بين الفكر الهندسي الإقليدي والفكر الهندسي اللإقليدي، لنفصح عن أضرب الجدل بين القديم والجديد، في صلة الاختباري بالعقلي والمحسوس بالمعقول والقبلي بالبعدي. "لذا وجب علينا أن نسعى لبيان انقسام الفكر الهندسي واتساعه من وجهة النظر الجدلية والتركيبية هذه". هذا وقد أزم "باشلار" الفكر العلمي قاعدتين أساسيتين:

1- "يجب علينا أن نتبنى بداهة الجدل، الذي قامت اللأوقليدية على أساسه، وقوام هذا الجدل فتح المذهب العقلي، وإبعاد تلك النظرة النفسية التي ترى في العقل شيئاً منبثقا، يدور في أوليات ثابتة لا يتجاوزها.

2- يجب علينا أن نظهر شروط التأليف بين الهندسات المختلفة، وهذا ما سيقودنا أولا إلى أن نستخلص صيغ التقابل القائمة بين هذه الهندسات "(35). إن ضرورة ووجوب فتح العقل هو ما من شأنه أن يمكن من إعادة ترتيب مستلزمات العلم، وهذا المطلوب يجعلنا حتما على جدل مفهومي بين "الانفتاح" و"الانغلاق" والذي بحسبه تتحدد معطيات جدل القيمة الإستيمولوجية. وإذا ذلك فقد أوجب "باشلار" "على كل باحث في سيكولوجية الفكر العلمي، أن يعيش فعلا هذا الازدواج الغريب في الشخصية الهندسية الازدواج الذي ظهر خلال القرن المنصرم في الثقافة الرياضية"(36).

إذا كان جدل الاحتواء والتكامل يهدف بالأساس إلى تصحيح المفاهيم العلمية الكلاسيكية لإعادة بعث الإنتاج المعرفي في الفكر المعاصر، فإن هذه المهمة في نظر "باشلار" يجب أن تكون مسبقة بعملية أولى تتمثل في جدل النفي، الذي يضع العقل أمام سجال حقيقي بين الوهم والفهم "وأن نكون دائما على حذر واستعداد للاستيلاء على الفعل الذي يمكن أن يكون موضوعا لنظرية جديدة"(37). المطلقات والنسيب، بين الثوابت والمتغيرات. وتظهر هذه المعادلة الجدلية بخاصة في العلم الفيزيائي وقد تأكد لدينا بأن الاحتواء ضرب من أضرب الجدل في إستيمولوجيا "باشلار"، فإن الجدل في ذاته يحتوي النفي الذي يبرر ضرورة القطيعة بين القديم والجديد. بين إذن أن مرجعية فلسفة النفي في الفكر الكلاسيكي، إنما شملت البنية العقلية واحتواؤها لمنظومة المفاهيم والمقولات، بمثل ما اعتقده أفلاطون ديكارت، وكانط. ونطالع قراءات إستيمولوجية مفصلة في أعمال "باشلار"، وخاصة في كتابه: "الفكر العلمي الجديد" وحديثه المفصل حول الإستيمولوجيا اللاديكارتية، وكذا الميكانيكا اللانوتونية، اللتان تجسدان عمق الجدل بين علوم أمس وعلوم اليوم .

بيد أن نقطة التحول الكبرى في المشروع الإبيستيمولوجي الباشلاري، تتبدى مع نظرية النسبية عند "أنشتين" العام (1905). ما من شك -بعدئذ- أن الجدل سيتحول من القطيعة إلى الانفتاح والتطور والفلسفة الجدلية الناجحة ليست بالتى تضع قيودا وحدودا لمقوماتها وممارساتها، وإنما تلك التي تنزع إلى إعادة النظر والمراجعة المستمرة لحقائقها ومبادئها ومناهجها. وإجمالا فإن الجدل الذي يقصده "باشلار" في مشروعه الإبيستيمولوجي، ليس متضمنا في واقع المعارف العلمية، ولكنه منبثق عن المعارف العلمية ذاتها.

إن الثورات العلمية المحققة في تاريخ العلم القديم والحديث، قد استلهم منها باشلار روح العلم وهممه العليا، التي وضع من خلالها مقاربات بينتاريخية، انعقد بموجبها صلح العقل مع التاريخ، إذ كيف يستقر الفهم العلمي لمضامين الثورة المحددة في الخطابات والممارسات الإبيستيمولوجية دون عرضها على الأسس العقلانية والسيكولوجية، بما يمكننا من إدراك خلاصة المقاربات بين القيم الموضوعية والقيم التاريخية لفلسفة التفوق المشروعة في الفكر العلمي الجديد، وحرى بنا أن نعلن صراحة -مند البداية- عن النوايا البريئة لوجهة العقلانية التطبيقية في الفكر المعاصر، وهي تنزع إلى الارتقاء بالعقل ذاته، عبر محطات جدلية من العقل الهندسي إلى تأسيس العقلية النقدية المفتوحة "فقصديّة العقلانية التطبيقية تستبقي لنفسها إمكان تصويب نفسها، وهي مستعدة عند التطبيق أن تلقي جدليات تهيئ قابليات حتى في مبادئ التنظيم، ... والجدليات هي التي تربط العقل الهندسي بالعقل النقدي في نظيمة هي بكل تأكيد شديدة الفاعلية في الفكر العلمي المعاصر" (38).

خاتمة:

بين إذن أن الدياليكتيك الإبيستيمولوجي تبعا للتصور الباشلاري، يراد منه تفكيك المنظومة المعرفية لإعادة بعثها في بنية جديدة، وإنما لنقر الحقيقة إزاء تميز وخصوصية الجدل

الباشلاري عن غيره من أنواع الجدل لدى سابقه.. ذاك هو مؤشر اعتبار العقلانية الباشلارية جدلية، مفتوحة، نسبية، وبنوية. إذ كيف يتسنى لعقل ثوري أن يقبع تحت نير الماضي الذي لم تتخلخل أركانه بعد، ولم تعرض نظرياته وأفكاره على خبراء النظر والتقوم (سيكولوجيين ومنطقيين ومهندسين وناقدين) إذ دون هذا الطرح تظل العقبات تؤرق الفكر وتعقد مقاصد العلم وتطمس حقائق التاريخ، لتستبقي على أخطائه وتراكماته السلبية. ويعتبر الدافع النفسي أحد أبرز المؤشرات التي تساهم في جعل النظريات العلمية مقبولة، موضوعية، باستبعاد كل العقبات النفسية التي تضع الفكر في معترك الأخطاء، وبيان ذلك أن الجدليات العلمية لا تشترط قيام الأسس ومنظومة المفاهيم في جانبها المعرفي أو التاريخي وحسب، ولكن يجب اختبار مسلماتها العملية والافتراضية وعرضها على قوانين ومقررات الفكر العلمي الجديد من خلال وضع معايير لأساليب المقابلات البين تخصصية أو البيمناهجية، وأكثر من ذلك البينفسانية وإذ توضع هذه الشروط والآليات الجديدة كقواعد عقلية معيارية، فإنما يراد بها مقابلتها بمستويات الاختبار في مواضع الثقافات العلمية المتنوعة (النظرية الموجية والنظرية الجسيمية مثلا في الفيزياء المعاصرة). إنها العقلانية الجدلية وحدها التي تنفذ إلى أعماق المشكلات لتستبطن العقبات والأخطاء وتحصي العوائق الذاتية والموضوعية، لتعيد بناءها عبر معادلة التجديل والإنكار والتشطيب لإعادة تقوم مسارات الفكر العلمي لأدراك قين الفكر والعلم والتاريخ.

الهوامش:

- (1) - كونغيلام جورج: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة د. محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة (ط1)، 2007، ص 295.
- (2) - هيغل: موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 217.
- (3) - السيد حسن شعبان: برونشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم، دراسة نقدية مقارنة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (ط1)، 1993، ص 19.
- (4) - Joseph Staline: Matérialisme Dialectique Et Matérialisme historique; Edition de l'évidence, 2007. P 03.
- (5) - الجابري محمد عابد: تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، (ج1)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (ط1)، 1976، ص 29.
- (6) - Gaston Bachelard : La formation de l'esprit scientifique, Contribution d'une psychanalyse de la connaissance objective, J. vrin, France, 1965. P 09.
- 7- Gaston Bachelard : La philosophie du non, Presses universitaire de France, 1970. P 113.
- (8) - Gaston Bachelard : La philosophie du non p126.
- (9) - كونغيلام جورج: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ص 296.
- (10) - Gaston Bachelard : La philosophie du non P 123.
- (11) - Gaston Bachelard : La philosophie du non p 125.
- (12) - لينتير. ج.ن: أبحاث جديدة في الفهم الإنساني، ترجمة د. أحمد فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1983، ص 158.
- (13) - كونغيلام جورج: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، 306.
- (14) - Gaston Bachelard : La philosophie du non p 12.
- (15) - كونغيلام جورج: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ص 309.
- (16) - الكحلاني حسن محمد: فلسفة التقدم، دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ مكتبة مدبولي 2003، ص 130.
- (17) - باشلار غاستون: حدس اللحظة، تعريب رضا عزوز وعبد العزيز زمزم، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986، ص 26.
- (18) - Henri Bergson : L'évolution Créatrice, p. E. F, Paris, France, 1969. p 103.
- (19) - باشلار غاستون: حدس اللحظة، ص 20.
- (20) - باشلار غاستون: حدس اللحظة، ص 114.
- (21) - وقيدي محمد: فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط (ط1)، 1980، ص 148.
- (22) - Armand colin: Histoire de la philosophie, - 3- le triomphe de la raison. Sous la direction de jacqueline Russ. P 77.
- (23) - وقيدي محمد: فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار، ص 149.
- (24) - الجابري محمد عابد: تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، ص 37.
- (25) - الجابري محمد عابد: تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، ص 37.
- (26) - السيد حسن شعبان: برونشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم، ص 144.
- (27) - السيد حسن شعبان: برونشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم، ص 136.
- (28) - Dominique Lecourt: Bachelard, presses universitaire, paris, 1971. pp 30-31.
- (29) - Gaston Bachelard : La philosophie du non p48

(30)- Gaston Bachelard : *La philosophie du non* p 108

(31)- Gaston Bachelard : *La philosophie du non* p 133.

(32) - هشام محمد: تكوين مفهوم الممارسة الإستيمولوجية عند غاستون باشلار، إفريقيا الشرق المغرب، ص 110.

(33)-Gaston Bachelard : *La philosophie du non* p17.

(34) - باشلار غاستون: الفكر العلمي الجديد، ترجمة د. عادل العواء، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت،

لبنان، (ط5) 2002، ص23.

(35) - باشلار غاستون: الفكر العلمي الجديد، ص23.

(36) - باشلار غاستون: الفكر العلمي الجديد، ص29.

(37)- Serge Lestrat : *Épistémologie des sciences physique*, édition Nathan, 1990.

P51.

(38)- Gaston Bachelard : *Le rationalisme appliqué*, Bibliothèque de philosophie contemporaine. Presses universitaire de France, 4eme Edition, 1970.p 10.